﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران: 79]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربط بين انحراف أباطيل أهل الكتاب، وفساد مزاعمهم في عيسى وألوهيّته

لـمَّا بيَّن في الآية السَّابقة بعض طبائع علماء أهل الكتاب، من التَّحريف وليِّ اللِّسان بالكلام، جاءت هذه الآية بمثال تطبيقيٍّ يُبيّن ما يَفعلُونه من التَّحريف والتَّبديل واللَّيّ، وذلك بزعمهم أنَّ عيسى عليه السلام، كان يَدّعي الأُلوهيَّة، وأنَّه كان يأمر قومه بعبادته، فنفى الله ذلك عنه[1]، "ما ينبغي لأحدٍ من البشر أن يُنزِّل الله عليه كتابه ويجعله حكمًا بين خلقه، ويختاره نبيًّا، ثمّ يقول للنّاس: اعبدوني من دون الله، ولكن يقول: كونوا حكماء فقهاء علماء؛ بما كنتم تُعَلِّمونه غيركم من وحي الله تعالى، وبما تدرسونه منه حفظًا وعلمًا وفقهًا"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِبَشَرٍ﴾: البَشَر: الإنسانُ الواحِدُ رَجلًا كان أم امرأةً، هو بَشَرٌ، وهي بَشَرٌ، وهما بَشَرٌ، وهُم بَشَرٌ، لا يُثَنَّى ولا يُجمع، قال الشَّاعر:

(1) يُؤكِّد ما ذُكر في سبب نزول هذه الآية، ما ذكره ابنُ كَثير في تفسيره عن ابن عبَّاس: أنَّ أبا رَافع اليهوديّ والسَّيّد مِن نصارى نجران قالا: يا محمَّد (أتريد أن نَعبدَك)؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «مَعاذَ اللَّهِ أن يُعبَدَ غَيرُ اللَّهِ أو نَأْمُرَ بِعِبادَةِ غَيرِ اللَّهِ، ما بِذَلِكَ بَعَثَنِي، ولا بِذَلِكَ أَمَرَنِي» فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ، الواحديّ، أسباب نزول القرآن، ص: 223، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/293، وقد وَرَدَ ذلك في أسباب النُّزول للواحديّ، وذكرها ابنُ عاشور في تفسيره، وهذا ما يتناسب مع السِّياق، وقيل: أنَّ الآية نَزَلَت لأنَّ رجلًا قال: يا رسولَ الله نُسَلِّمُ عليكَ كما يُسَلِّمُ بَعضُنا على بَعضٍ أفلا نَسجُد لك؟ قال: «لَا ينبغي أَن يَسجُد لأحدٍ مِن دُون الله، ولكن أَكرِمُوا نَبِيَّكُم واعرفُوا الحقَّ لأَهلِهِ» الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/377 - 378.

(2) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 60.

مُعاوِيَ، إنَّنا بَشَرٌ فأَسْجِحْ *** فَلَسْنَا بالْجِبَالِ وَلَا الْحَدِيدَا[1]

والبَشَرَةُ ظاهرُ جِلدِ الإنسان، ومِنه باشَرَ الرَّجلُ المرأةَ، وذلك إفضاؤُهُ ببَشَرَته إلى بشرتها. وسُمِّيَ البَشَرُ بَشَرًا لظهورهم[2].

2) ﴿يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ﴾: الإيتاءُ بالمدِّ يُستعملُ في الإعطاء وفي الإتيان بالشَّيء، تقولُ: آتَى يُؤتِي إيتَاءً[3]. وفي الكشَّاف: اشتَهَرَ الإيتاءُ في معنى الإعطاء، وأصلُه الإحضارُ[4].

وذكر الرَّاغبُ أنَّ الإيتاءَ في القرآن مَخصوصٌ بدَفع الصَّدقَة[5]؛ وليس كذلك، فقد ورد في غيره: كقوله تعالى: ﴿يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: يُعطيَه اللّه كتابَه وحيًا إليه، و﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: 12]، و﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الصَّافات: 117]، إلَّا أن يكونَ قَصَد المَصدَر فقط[6].

3) ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: الكِتابُ في الأصل مَصدَرٌ، ثُمَّ سُمِّي المكتوب فيه كتابًا، وهو اسمٌ للصَّحيفة مع المكتوب فيه، وفي قوله: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النّساء: 153] فإنَّه يعني صحيفة فيها كتابةٌ، وهو اسمُ جنس؛ (القرآنُ، التَّوراة، الإنجيل، أو الزَّبور)[7].

4) ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾: وهو المَنعُ مِنَ الظُّلم، وسُمِّيَت حَكَمَةُ الدَّابَّةِ لأنّها تَمنَعُها، يُقالُ: حَكَمتُ الدَّابَّةَ وأحكَمتُها[8]، قال اللَّيث: الحَكَمُ: اللّه تبارك وتعالى، وهو أحكم الحاكمين، وهو الحكيم له الحكم، قال: والحُكْمُ: العلمُ والفقهُ، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ [مريم: 12]، أي

(1) البيت للشّاعر عقيبة بن هبيرة الأسديّ، قاله لمعاوية بن أبي سفيان (ﷺ) في أبيات، وجه الاستشهاد بالبيت أنّ (الحَدِيدَا) منصوبٌ عطفاً على محلّ الجبال المجرورة لفظاً، وهذا البيت ممّا أخطأ فيه سيبويه، وكان عقيبة وفد على معاوية، ودفع إليه رقعة فيها أبيات مطلعها:

مُعاوِيَ، إنَّنا بَشَرٌ فأَسْجِحْ *** فَلَسْنَا بالْجِبَالِ وَلَا الْحَدِيدَا

فدعاه معاوية فقال له: ما أجرأك عليّ ؟ قال: نصحتك إذ غشُّوك، وصدقتك إذ كذبُوك. فقال معاوية: ما أظنّك إلّا صادقًا. انظر: سيبويه، الكتاب: 1/34، 375، 448، والإنصاف في مسائل الخلاف: 1/33، ولسان العرب: (غمز).

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (بشر).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أتي).

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/198.

(5) الرّاغب، المفردات: (أتى)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (أتي).

(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (أتى).

(7) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (كتب).

(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).

عِلمًا وفقهًا، هذا ليحيى بن زكريا.[1]. والحكمةُ هذا قياسُها، لأنّها تَمنَعُ مِنَ الجهل[2]، ومَرجِعُها إلى العَدل والعِلم والحِلم. ويُقال: أحكَمَتهُ التّجارِبُ إذا كان حكيمًا[3].

5) ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾: النَّبيُّ: العَلَم مِن أعلام الأرض الَّتي يُهتدَى بها، ومنه اشتقاقُ النّبيِّ لأنّه أرفع خَلقِ اللَّهِ، وذلك لأنّه يُهتدَى به، وهو الَّذي أنبأ عَنِ الله، فتُرِك هَمزُهُ، والنَّبيّ بغير الهمز أبلغ من النّبيء؛ لأنَّه ليس كلّ مُنبّأٍ رفيع القدر والمحلّ، وممَّا يُؤكِّد ذلك أنَّ لفظ النَّبيّ، مأخوذٌ من النَّبوة والنَّبَاوَةِ، وهي الارتفاعُ مِنَ الأرض، لارتفاع قَدْره، ولأنَّه شُرِّف على سائر الخَلق، فأصله غَيرُ الهَمزِ، وهو فَعِيل بمعنى مَفعول، والجَمعُ أنبياء[4]، والنُّبُوَّةُ: سِفارَةٌ بين اللّه وبين ذوي العُقول من عِباده، لإزاحة عِلَلِهم في أمر مَعادِهم ومَعاشِهم[5].

6) ﴿عِبَادًا﴾: والعبادُ جمعٌ، مُفردُهُ عَبدٌ، وهو مأخوذٌ مِن مادّة (عَبَدَ)، أي: تَذَلَّلَ، يُقال: عَبَّد الطَّريق، أي: ذلّله، والعُبوديَّة: إظهارُ التَّذلُّل، والعِبادة أبلغُ مِنها؛ لأنَّها غايةُ التَّذلُّل، ولا يستحقُّها إلَّا مَن له غاية الإفضال، وهو اللّه تعالى، والعَبد يُقال باعتبار الإيجاد، وذلك ليس إلَّا للّه، وإيَّاه قصد بقوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣﴾ [مريم: 93]، وهو عبدٌ بالعِبادة والخِدمة، والنَّاس في هذا ضربان: عبدٌ للّه مُخلِصٌ، وهذا ما ورد ذِكره في كثيرٍ من آيات القرآن، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص: 41]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ [الفرقان: 01]، إلى غير ذلك من الآيات، وعبدٌ للدُّنيا وأغراضها[6]، وهو المقصود بقوله ﷺ: «تَعِسَ عَبدُ الدِّرهَم، وتَعِسَ عَبدُ الدِّينار»[7].

7) ﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾: الرَّبُّ، هو اللّه تبارك وتعالى، هو رَبُّ كلِّ شَيءٍ، أي: مَالِكه، وله الرُّبوبيَّة على جميع الخَلق لا شريك له. ويُقال: فلانٌ رَبُّ هذا الشَّيء، أي: مِلْكه له. ولا يُقال: الرَّبّ بالألف واللَّام لغير اللّه[8]، والرَّبّانيُّ منسوبٌ إلى الرَّبِّ، وهو الكاملُ في العِلم والعمل،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حكم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حكم).
(3) الخليل، العين: (حكم).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (نبأ).
(5) الرّاغب، المفردات: (نبأ).
(6) الرّاغب، المفردات: (عبد).
(7) صحيح البخاري، الحديث رقم: (2730)، ورقم: (6071).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رب).

الشَّديدُ التَّمسكِ بطاعة الله ﷻ ودينه[1]، و"المراد به عالمٌ زاهدٌ، والضّم والكسر على هذا مخالف للقياس، والفتح موافق له، وبها قُرئ، وقيل الضمّ والكسر منسوب إلى الرّبّة بالضّم والكسر؛ لغتان فيه، بمعنى الجماعة؛ وياء النّسبة للمبالغة كاحمريّ، ومن قال: معناه الكثير العلم، من ربا يربو، فقد أخطأ؛ لاختلاف المادّتين"[2].

8) ﴿تَدْرُسُونَ﴾: دَرَسَ الشّيء، والرَّسمُ يَدرُسُ دُروسًا، بالضَّمِّ: عَفا. ودَرَسَتهُ الرِّيحُ دَرسًا: مَحَته، إذا تَكَرَّرَت عليه فعَفَّته[3]. ودَرَستُ العِلمَ: تَنَاوَلتُ أثرَه بالحفظ، ولمَّا كان تناول ذلك بمداومَة القراءة عُبِّر عَن إدامةِ القِراءة بالدَّرس، قال تعالى: ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾ [الأعراف: 169]، وقال: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لا يَنبَغي لِبشرٍ آتاهُ اللّهُ ما آتاه مِنَ النِّعم أن يَقولَ للنَّاس اعبدوني مِن دُون اللّه، ولكن يدعوهم إلى أن يكونوا ربَّانيينَ، أي: مُقبِلِينَ على طاعة اللّه تعالى وعبادَته وحده بجدٍّ ونشاطٍ وإخلاصٍ، بسببِ كونكم تُعَلِّمونَ غيرَكُمُ الكتابَ الَّذي أنزلَه اللّه لهداية النَّاس وبسبب كَونِكُم دارسينَ له، أي: قارئين له بتمهُّلٍ وتدبُّرٍ[5].

لا يمكن أن يصطفي الله المسيح للرّسالة، فيدّعي الألوهيّة من دون الله

❁ الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ أُسْلُوبِ النَّفْيِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ﴾:

المَقصودُ مِن مَوضِع الشَّاهد مِنَ الآيةِ الكريمة أنَّه يَنفي عنه الكَونَ، والمُرادُ نَفي الخبر، وذلك على قِسمَين:

إبطالُ فِرْيَةِ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العَقل السَّليم: 2/52.
(2) الخفاجيّ، عِنَايةُ القَاضِي: 3/69.
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (درس)
(4) الأصفهانّي، المفردات: (درس).
(5) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 2/160.

أحدُهُما: أن يكونَ الانتفاءُ مِن حيث العَقل، ويُعَبَّر عنه بالنَّفي التَّامّ، ومثاله قوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾ [النّمل: 60]، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ﴾ [آل عمران: 145].

والآخر: أن يكونَ الانتفاء فيه على سبيل الانتفاء، ويُعبَّر عَنه بالنَّفي غير التَّامِّ، ومثاله قول أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه: «مَا كَانَ لِابْنِ أَبِي قُحَافَةَ أَنْ يُصَلِّيَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»[1].

ومُدرَكُ القِسمين إنَّما يُعرَفُ بسياق الكلام الَّذي النَّفيُ فيه، وهذه الآيةُ مِنَ القِسمِ الأوَّلِ؛ لأنَّا نَعلَمُ أنَّ الله لا يُعطي الكَذَبَةَ والمُدَّعِينَ النُّبُوَّة، وفي هذه الآية دلالةٌ على عِصمَة الأنبياء[2] عليهم السلام.

تَعْيِينُ الْمَنْفِيِّ بِقَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ استعمال قرآنيّ يُفيدُ نفيَ الشَّأن وعدمَ اتِّفاق هذا المعنى الَّذي ادَّعاه اليهود والنَّصارى مع الحقيقة المفروضة في الرُّسُل، وقد قالوا: إنَّ كلمة ﴿مَا كَانَ﴾ في هذا المقام وما يُشبهه هُوَ في معنى (مَا يَنْبَغِي)، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ﴾ [مريم: 35]، والنَّفي في هذا النَّص القرآنيّ مُنصَبٌّ على اجتماع الرِّسالة مع القَول الَّذي يكذبون به على أنبياء الله، والمعنى: لا ينبغي لبَشر أن يُخاطبه الله تعالى، ويعطيه الحُكم والنُّبوّة أن يقول للنَّاس: كونوا عبادًا لي من دون الله، فليس النَّفي بالبداهة مُنصبًّا على إيتاء الله الكتاب والحُكم والنُّبوّة، بل هو مُنصَبٌّ على المعطوف، وهو أن يكون منه – مع ما آتاه الله – ذلك الادِّعاء، فيدعو النَّاس إلى عبادته[3].

تَنْزِيهُ اللهِ تَعَالَى أَنْبِيَاءَهُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنِ الْمَزَاعِمِ الَّتِي نَسَبَهَا إِلَيْهِمْ أَهْلُ الْكِتَابِ

(1) رواه البخاري في صحيحه، الحديث رقم: (684)، ومسلم في صحيحه، الحديث رقم: (421).
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/229 - 230، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 5/345، ورضا، تفسير المنار: 3/285، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1289.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1289.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾:

المُبَالَغَةُ فِي النَّفْيِ مُلَائِمَةٌ لِقُبْحِ ادِّعَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ

في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ إيجازٌ بالحذف، ومبالغةٌ في نفي استحقاق أيِّ أحدٍ لذلك القَول، فاللَّام فيه للاستحقاق، وأصلُ هذا التَّركيب في الكلام: ما كان فُلانٌ فاعِلًا كذا، فلمَّا أُرِيدَتِ المُبالغةُ في النَّفي عُدِلَ عَن نَفي الفعلِ إلى نَفي المصدر الدَّالّ على الجنسِ، وجُعِلَ نَفيُ الجنسِ عَنِ الشَّخص بوساطة نَفي الاستحقاق؛ إذ لا طريقةَ لحَملِ اسم ذاتٍ على اسم ذاتٍ إلَّا بوساطة بعض الحروف، فصار التَّركيب: ما كان له أن يَفعَلَ، ويُقالُ أيضًا: ليس له أن يَفعَلَ، وهذه اللَّام أصل لام الجُحود الَّتي في نحو: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ [الأنفال: 33]، فتراكيبُ لام الجُحودِ كُلّها مِن قبيل قَلب مثل هذا التَّركيب لِقَصد المُبالغة في النَّفي، بحيثُ يُنفَى أن يكونَ وجودُ المُسنَدِ إليه مَجعولًا لأجل فِعل كذا، أي: فهو بريءٌ منه بأصل الخِلقة؛ ولذلك سُمِّيَت جُحودًا[1].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالْبَشَرِ بَدَلًا مِنَ النَّبِيِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾:

صِدْقُ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام وَبَدِيعُ حِكْمَةِ اللهِ تَعَالَى فِي اصْطِفَائِهِمْ

جاء التَّعبيرُ بلفظ ﴿لِبَشَرٍ﴾ بَدَلًا مِن (نَبِيٍّ) في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ النَّبيَّ بشرٌ مِنَ البشرِ، وأنَّه إذا جازَ على البشرِ الكَذِبُ والافتراءُ على اللهِ وعَلَى النَّاسِ، فإنَّ النَّبيَّ - وهو بشرٌ - لا يكونُ مِنه أبدًا الكَذِب والافتراء على الله أو على النَّاس، وإلَّا كان ذلك اتِّهامًا لله ﷻ حيثُ اصطفى واختار مَن يحمل رسالَته، ويؤدّي أمانتَه، ثمَّ لم يكن من هذا المُصطفى المختار إلَّا أن زَيَّف الرِّسالة وخانَ الأمانة! وبَدَلًا من أن يكون داعيًا للّه، هاديًا إليه؛ تحوَّل إلى داعيةٍ لِنفسِه، قائدًا النَّاسَ إلى الهلاك والضَّلال! وتعالى اللّه عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا، وإنَّه لن يَرضى أسوأُ الحُكّام وأَجهلُ الأمراء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/293 - 3/294.

أن يُنسب إليه مِثلُ هذا العَجز وسُوء التَّقدير في اختيار أعوانه وسُفرائه، فكيف بأحكم الحاكمين اللّه ربّ العالمين؟![1]، وفي هذا بيانٌ لِعلَّة الحُكم؛ فإنَّ البشريّة مُنافيةٌ للأمرِ الَّذي أسنده الكَفرةُ إلى أولئكَ الكِرام عليهم الصَّلاة والسَّلام[2].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ ﴿يُؤْتِيَهُ﴾ دُونَ (يُعْطِيَهُ):

النُّبُوَّةُ فَضْلٌ خَالِصٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِمَنِ اصْطَفَاهُ

عُبِّر بالإيتاء في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ الإيتاء لا يكون إلَّا في الشَّيء العظيم، مثل القرآن والمُلك والحُكم والنبوَّة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: 87]، وقال سبحانه: ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ﴾ [آل عمران: 26]، وقال ﷻ في حقِّ داود عليه السلام: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: 251]، كلُّ هذه المعاني تكون مع الإيتاء الَّذي ليس للعَبد فيه دخلٌ ولا اجتهاد، إنَّما هو فضلٌ خالص للّه تعالى على من يختاره لرسالته، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [الحجّ: 75]، وقال لموسى عليه السلام: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: 144].

أمَّا الإعطاء؛ فهو فِعلٌ له مقابل، أعطاني فأعطيته، ويكون في الشّيء القليل، قال تعالى: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾ [النجم: 34]، وقد يَردُ العطاء مُفيدًا للكثرة كما في قوله: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: 20]، وقد يَرد العطاء كُرهًا كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التّوبة: 29].

ولذلك كلِّه آثر القرآن الكريمُ التَّعبيرَ بفعل الإيتاء؛ لأنَّ السِّياق هنا في المعاني العظيمة.

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 2/506.

(2) أبو السّعود، إرشاد العَقل السّليم: 2/52، والبروسوي، روح البيان: 2/54، والآلوسّي، روح المعاني: 2/199.

وفي التَّعبير بصيغة المضارع في قوله: ﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ استحضارٌ لصورة الإيتاء، وكأنَّك تراه ينزل من السَّماء على الأنبياء، والاستحضار لهذه الصُّورة أدعى إلى الأدب مع الله تعالى، فلا يُتَصوَّر نزول الوحي على نبيٍّ من أنبياء الله، ثمَّ يطلب من أتباعه أن يعبدوه من دون الله.

سِرُّ إِسْنَادِ الْفِعْلِ ﴿يُؤْتِيَهُ﴾ إِلَى الِاسْمِ الْأَحْسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

إِيتَاءُ اللهِ تَعَالَى الْخَلْقَ نَوْعَانِ إِيتَاءٌ بِمُقْتَضَى رُبُوبِيَّتِهِ، وَإِيتَاءٌ بِمُقْتَضَى أُلُوهِيَّتِهِ

إسنادُ الفعل ﴿يُؤْتِيَهُ﴾ إلَى الاسْم الْأَحْسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ يُشير إلى أنّ هذا الإيتاء تكليفٌ في البلاغ عنِ الله تعالى؛ لأنَّ الإيتاء على نوعين؛ إيتاءُ ربوبيَّة بما فيه من أسباب النِّعم والتَّربية لجميع الخَلْق، وإيتاءُ أُلوهيَّةٍ؛ وهو التَّكليف بأنواعه كلِّهَا، ومنه تكليف الله تعالى لأنبيائه ﷺ.

عِلَّةُ التَّعْبِيرِ بِالْحُكْمِ دُونَ الْحِكْمَةِ:

افْتِقَارُ الْحُكْمِ إِلَى الْحِكْمَةِ

عُبِّر بالحُكم دون الحكمة؛ لأنَّ الحكمَ أعمُّ، فهما وإن اشتركا في أصل المادَّة اللُّغويَّة وهي: (حَكَمَ) بمعنى المنع، إلَّا أنَّ الحِكمة أخصُّ من الحُكم؛ فالأصل في الحُكم وجود الحكمة، بخلاف الحكمةِ فلا يلزم فيها الحُكمُ.

سِرُّ تَقْدِيمِ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ عَلَى ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ وَ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾:

الْإِعْدَادُ وَالتَّهْيِئَةُ لِتَحَمُّلِ الْمَهَامِّ مَنْهَجٌ قُرْآنِيٌّ

قُدِّم ذِكر الكِتاب، والمرادُ به الكتاب السَّماويّ؛ للإشارة إلى مقام الرِّسالة؛ إذْ لو قدّم الحُكم - وهو بمعنى العِلم -؛ لكان ذلك عامًّا للأنبياء والأولياء والحكماء، يُؤكد هذا أنَّ الله أعطى العِلم خلقًا كثيرًا، كملوك بني إسرائيل، فقال تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: 247]، وأعطى الحِكمة لـ (لُقمان) وهو ليس نبيًّا، ولمَّا كان المقامُ في آية آل عمرانَ خاصًا بالرِّسالة، كان التَّقديم للكتابِ، وذكرُ الحُكمِ هو من باب الإعداد والتَّهيئة النَّفسيّة والعقليَّة، ثمَّ بعد ذلك تأتي مرحلة إعلان النُّبوّة للبلاغ عن الله إلى الخلق.

ومن الإشارة أيضًا في هذا التَّرتيب: أنَّ الكتابة في مبناها اللُّغويّ تدُلُّ على الضَّمّ، وفي هذا إشارة إلى ضمِّ العَبد المُختار للرِّسالة إلى مَوكِب الأنبياء، وأمَّا الحُكمُ فَأصلُه المنع، ويشير هنا إلى عِصمة الرَّسول من الوقوع في الخطأ.

ولمَّا كانت مادَّة النُّبوَّة دالَّةً على الارتفاع؛ جاء ذكرها للإعلان عن عُلُوِّ قَدرِ النَّبيِّ، وعظيم مكانته وَإمامته لأتباعه.

وفي هذا التَّرتيبِ ملحظٌ آخرُ؛ وهو أنّ الكتاب السَّماويّ يَنزلُ أوَّلًا، ثمّ يَحُصُل في عَقلِ النَّبيّ فَهمُ ذلك الكتاب، وإليه الإشارةُ بالحُكم؛ فإنَّ أهلَ اللُّغةِ والتَّفسيرِ اتَّفقوا على أنَّ هذا الحُكمَ هو العِلمُ، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ [مريم: 12]، يعني: العِلمَ والفَهمَ، ثمَّ إذا حصلَ فَهمُ الكتاب؛ بلَّغَ ذلك إلى الخَلق، وهو النُّبُوَّةُ، فما أحسنَ هذا التَّرتيبَ![1].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِـ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ دُونَ (الرِّسَالَةِ):

النُّبُوَّةُ أَعَمُّ مِنَ الرِّسَالَةِ

عُبِّر بالنُّبوَّة دون الرِّسالة في قوله تعالى: ﴿أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾؛ لأنَّ مقام النُّبوَّة أعمُّ، والرِّسالة أخصُّ، والمناسب في تبرئة ساحة الأنبياء والرُّسل: التَّعبيرُ بالعموم ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾، بخلاف التَّعبير بالرِّسالة؛ فقد يُتَوهَّم وجودُ مَا ينافي العِصمةَ للأنبياء.

دِلَالَةُ الْعَطْفِ بِـ﴿ثُمَّ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾:

الْكَلَامُ إِذَا طَابَقَ نَظْمُهُ نِظَامَهُ حَازَ الْجَزَالَةَ بِحَذَافِيرِهَا

جِيءَ بِحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ وهو للمهلة في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ لقصدِ تَعظيمِ هذا القولِ، وإذا انتَفى هذا القولُ بعد المُهلَةِ؛ كان انتِفاؤُهُ من دونها أوْلى وأحْرى، أي: إنَّ هذا

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/271، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/230، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/375، والبروسوي، روح البيان: 2/54، والقنّوجيّ، فتح البيان: 2/272.

الإيتاءَ العظيمَ لا يُجامِعُ هذا القول، وإن كان بعد مُهلَةٍ مِن هذا الإنعام العظيم[1].

فهو إشعارٌ بالتَّفاوت العظيم بين ما أعطاهُ الله تعالى لأنبيائه مِن نِعَم، وهذا القولِ المُنكَر الَّذي نَفاه سبحانه عنهم، وهو أن يقولوا للنَّاسِ: اجعلوا عِبادَتَكم لنا ولا تَجعَلوها لله تعالى، ثمَّ بَيَّنَ سبحانه ما يَصحُّ للأنبياءِ أن يَقولوه للنَّاس[2].

تَوْجِيهُ الْقِرَاءَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾:

القراءةُ المتواترةُ: ﴿ثُمَّ يَقُولَ﴾ بفتحِ اللَّام، ويُروَى عن أبي عمرو – في غير ما تواترَ عنه – ضمُّهَا، وهي قراءة شاذَّة، أمَّا النَّصبُ؛ فهو على تقدير: لا تجتمع النُّبوَّة وهذا القول، والعامل فيه ﴿أَن﴾ وهو معطوف عليه، بمعنى: ثمَّ أن يَقولَ، وأمَّا الرَّفع؛ فهو على الاستئناف[3].

الْجَمْعُ بَيْنَ رِفْعَةِ النُّبُوَّةِ وَنَقِيضِهَا مُحَالٌ

سَبَبُ إِيثَارِ التَّعْبِيرِ بِلَفْظِ ﴿لِلنَّاسِ﴾ دُونَ (البَشَر) فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾:

آثر التَّعبير بلفظ النَّاسِ دونَ البَشَر؛ لكون البشَرِ استُعْمِلَ في خصوص بني آدمَ، بخلاف النَّاس؛ فإنَّ التَّحقيقَ صلاحيتُها للإنس والجنِّ معًا، فنُفِيتَ هذه الفرية عن الأنبياءِ نفيًا عامًّا، فلم يقولوهَا لَا لإنسيٍّ ولا لجِنِّيٍّ.

لَفْظُ (للناس) شَامِلٌ لِلْإِنْسِ وَالْجِنِّ

تقديمُ ما حَقُّهُ التَّأخير في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾:

النَّفيُ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ واقعٌ غير مَوقِعه؛ لأنَّ التَّأويل: ما كان لبشرٍ يُؤتيه الله الكتابَ والحُكمَ والنُّبوَّةَ، وقوله

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/230، والآلوسّي، روح المعاني: 2/199، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 5/345.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/461، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 2/159.
(3) الأزهريّ، معاني القراءات: 1/265، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/231، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/271.

إتْقَانُ كَلَامِ اللهِ تَعَالَى فِي وَضْعِ كُلِّ حَرْفٍ وَكَلِمَةٍ مَوْضِعَهُمَا اللَّائِقَ بِهِمَا

تعالى: ﴿يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ﴾ صفةٌ للنَّكرة على تأويل: ما كان لبشرٍ يكون بهذه الحال أن يقولَ للنَّاس: كُونوا عبادًا لي من دون الله، فالمَنفيُّ: (أَنْ يقولَ لِلنَّاس)، فلمَّا وَقَعَتْ ﴿أَن﴾ في غيرِ مَوقِعها؛ نُسِقَ عليها بـ ﴿ثُمَّ﴾، ففي الآية تقديمُ حرفٍ حقُّهُ أن يُؤَخَّرَ، ومِثله مِن تقديم ما وجَبَ أن يُؤخَّر في النَّظم قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ [الفتح: 25]، ومعناهُ: ولولا أن تطؤُوا رجالًا مُؤمنين ونساءً مُؤمناتٍ لم تَعلَموهم؛ أي: لم تعرفوهم[1].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِقَوْلِهِ: ﴿عِبَادًا﴾ دُونَ (عَبِيدًا):

دِقَّةُ النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ فِي انْتِقَاءِ جُمُوعِ الْأَلْفَاظِ

لفظةُ العِبادِ جمعُ عبدٍ، وجيء بهذه اللَّفظة في سياقِ التَّرفيع والدّلالة على الطَّاعة دُونَ أن يَقترِنَ بها معنى التَّحقيرِ وتَصغيرِ الشَّأنِ، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: 53]، وقول عيسى عليه السلام في معنى الشَّفاعة والتَّعريض: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: 118]، وأمّا العَبيدُ فيُستَعمَلُ في التَّحقير، ومنه قولُ حمزة بن عبد المطَّلب: (وهل أنتُم إلَّا عبيدٌ لأبي)، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فُصّلت: 46]؛ لأنَّه مقامُ إعلامٍ بقلَّةِ انتصارِهم ومَقدِرتِهم، وأنَّه تعالى ليس بظلَّام لهم[2].

فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لأنَّ المقامَ مقامُ طاعةٍ.

دِلَالَةُ الْإِضْمَارِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾:

حَذْفُ اللَّفْظِ إِذَا كَانَ فِي الْكَلَامِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ

في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ إضمارٌ، والتَّقدير: ولكنْ يقولُ لهم كونوا ربَّانيِّين؛ فأضمَرَ القولَ على مذهب العرب في جواز الإضمار إذا كان في الكلام ما يدُلُّ عليه، ونظيره قوله تعالى:

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 5/379.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/461، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/230.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ [آل عمران: 106]، أي: فيُقالُ لهم ذلك[1].

بَلَاغَةُ الْقَصْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾:

تَبرِئَةُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ دَعْوَى ادِّعَائِهِمُ الْأُلُوهِيَّةِ

في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ قصرٌ بالعطف بـ ﴿وَلَٰكِن﴾، فقد قَصَرَ مقالة الأنبياء على أمرهم الناسَ بأن يكونوا ربَّانيين، وهو قصرٌ إضافيٌّ؛ لأنَّ الأنبياءَ يقولون للنَّاسِ غيرَ هذا؛ من أمرهم بالخير ونهيهم عن الشَّرِّ، إلَّا أنَّه أوثَرَ أسلوبُ القصر ههنا لتأكيد تبرئة الأنبياء من دَعْوَى ادِّعائهم الألوهيَّةَ.

سِرُّ اخْتِيَارِ لَفْظِ ﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ دُونَ (الْعُلَمَاءِ):

الرَّبَّانِيُّونَ هُمُ الْعُلَمَاءُ الْحُكَمَاءُ الْحُلَمَاءُ، الْمُعَلِّمُونَ لِلنَّاسِ، وَالمُرَبُّون بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ، الْعَامِلُونَ بِذَلِكَ

فسَّر جماعةٌ من أهل التَّفسير لفظَ ﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ بالعُلماء والفقهاء، ولكنّ القُرآن آثر لفظ ﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ دونهما؛ لأنَّ العُلماء على قِسمين؛ منهم العالم المحصِّلُ علمًا - أيًّا كان ذلك العلمُ -، ومنهم العَالم الرَّبّانيّ، والمُراد به: الّذي تخصَّصَ بالعِلم الرَّبّانيّ المنسوب إلى الرَّبّ؛ لذلك عرَّفه بعض أهل العلم بأنَّه: المعلِّمُ الخيرَ، ومن يَسُوسُ النّاس ويُعَرِّفهم أُمور دينهم كما أراد الله تعالى، وفي هذا: إشارة إلى ذَمِّ علماء أهل الكتاب؛ لأنَّ علمهم لم يصل بهم إلى الرّبَّانيّة الّتي هي سبب السَّعادة في الدُّنيا والآخرة.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِقَوْلِهِ ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ دُونَ (تُعَرِّفُونَ):

الْعِلْمُ بَابُ الْوُصُولِ إِلَى الرَّبَّانِيَّةِ

مَن لم يتعلَّم لم يحقِّق الرَّبّانيّة كاملةً؛ لأنَّه لم يُدرِك حقيقةَ الشَّيء، ووقف عند ظواهر الأشياء وآثارها، وهذه معرفة ناقصة؛ لذلك فرَّق العُلماء بين العِلم والمعرفة، فقالوا: العِلم: إدراك الشَّيء

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 5/379، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/271، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/231، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 5/347، والآلوسيّ، روح المعاني: 2/200.

على حقيقته، أو هو ملَكَة يقتدر بها على إدراك الكُلِّيَّات والجزئيّات، ولذلك خصَّ الله بها الإنسان دُون سائر الأجناس من حيوانٍ ونباتٍ وجمادٍ، والعِلم نقيضُ الجَهل.

أمَّا المعرفة؛ فهي إدراكٌ لآثار الشَّيء، وضِدّها: الإنكار، فالمعرفة تُستَعمل - غالبًا - في العِلم القاصر المُتوصَّل إليه بتدبّر آثاره دون إدراك ذاته؛ لذلك استعُملَتِ المعرفة فيما يظهر أثره، كما قال تعالى عن الفُقراء الَّذين يتعفَّفُون: ﴿تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾ [البقرة: 273]، وقال في حقِّ المجرمين: ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ﴾ [الرّحمن: 41]، فالسِّيماء: علامةٌ يتوصَّل بها إليهم بخلاف العلم، فهو في ذات الشَّيء وحقيقته، والآيات في هذا المقام كثيرة[1].

وبناءً على ما تقدَّمَ؛ آثَر القُرآن الكريم هنا العِلم الَّذي هو إدراكُ الشَّيء على حقيقته؛ لأنَّ الرَّبّانيّة تحتاج إلى بذل الجُهد في الوصول، وهذا مقام العِلم تعلُّمًا وتعليمًا، أمَّا المعرفة فلا تفي بالمُراد في ذلك.

دِلَالَةُ الْبَاءِ فِي ﴿بِمَا﴾، وَنُكْتَةُ تَكْرَارِ ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾:

لَا نَجَاحَ لِلْعَمَلِ إِلَّا بِالْعِلْمِ، وَلَا ثَمَرَةَ لِلْعِلْمِ إِلَّا بِالْعَمَلِ

الباءُ في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ سَببيَّةٌ مُتَعلِّقَةٌ بـ﴿كُونُواْ﴾، أي: كونوا كذلك بسبب مُثابرَتِكُم على تَعليمكم الكتابَ ودِراستكم له، والمطلوبُ أن لا ينفكَّ العِلم عنِ العمل؛ إذ لا يعتدُّ بأحدهما دُونَ الآخر.

وكذلك تَتعلَّق بـ﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾؛ لأنَّ فيه معنى الفعل.

ويحتَمِلُ أن تكون متعلِّقةً بمحذوفٍ على أنَّها صفة لـ﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾، و(مَا) مصدريَّة، فتكونُ معَ الفعل بتأويل المصدر، أي: بسبب كَوْنِكم عالِمينَ[2].

وتَكرار ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في الآية جِيءَ بهِ للإيذان باستقلال كلٍّ مِن استمرار التَّعليم واستمرار القراءة بالفَضل وتحصيل الرَّبّانيَّة[3].

(1) الدوري، دقائق الفروق اللُّغويّة، ص: 190.

(2) التّفسير البسيط: 5/383 - 384، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 5/349، والآلوسّي، روح المعاني: 2/200.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/52.

تَوْجِيهُ الْقِرَاءَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾:

لِلْعِلْمِ مَرَاحِلُ؛ هِيَ التَّعَلُّمُ وَالتَّعْلِيمُ وَالْمُدَارَسَةُ

قرأ نافع وابن كثير وأبو عَمرو ﴿تَعْلَمُونَ﴾[1] على أنَّه فعلٌ مُضارِعٌ مِنْ (عَلِمَ)، ويَنْصِبُ مَفعولًا واحدًا؛ وهو الكتاب، ووَجه تخفيف اللَّام: حَمْلُهُ على ما بعده من قوله: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾؛ فإنَّه غيرُ مشدَّدٍ؛ إذ لم يقل: (تُدَرِّسُونَ)، حيثُ حَملَ الفعلين على مَعنًى واحِدٍ.

وقرأ الكوفيُّون وابن عامر ﴿تُعَلِّمُونَ﴾[2]مِنَ التَّعليم على أنَّه مُضارع (عَلَّم)، قال مَكِّيّ بن أبي طالب: "فالتَّشديد أبلغ؛ لأنَّه يدُلُّ على العِلم والتَّعليم، والتَّخفيف إنَّما يدُلُّ على العِلم فقط، فالتَّعليم أبلَغ وأمدَح"[3]، ووجهُ كونِه أبلغَ وأمدحَ: أنَّهم لا يُعَلِّمون إلَّا وقد عَلِموا هُم، ولا يكونُ العَالِمُ عالِمًا حتَّى يَعمَلَ بِعِلمِهِ، فأحَدُ عَمَلِهِ تَعليمُهُ غيرَهُ[4].

إذَنْ؛ قراءة ﴿تَعْلَمُونَ﴾ بالتَّخفيف تشير إلى التَّعلُّم، وقراءة التَّشديد ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ تشير إلى التَّعليم، وقوله ﴿تَدْرُسُونَ﴾ يشير إلى المُدارسة، وهذه مراحل التَّعليم، فالقراءات متكاملةُ المعاني والدِّلالات.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾:

تَحْصِيلُ الْعِلْمِ لَا نِهَايَةَ لَهُ وَلَا حَدَّ

جِيءَ بخَبرِ (كانَ) مُضارعًا ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ ﴿تَدْرُسُونَ﴾؛ لإفادة استمرارِ القراءة والعلم والدّراسة من دون انقطاع؛ لأنّ الإنسان يعيش عمره بين هذه المراحل.

(1) ابن الجزري، النشر: 2/240.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/240.
(3) الفارسّي، الحجّة للقرّاء السّبعة: 3/61، ومكّيّ بن أبي طالب، الكشف: 1/350، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/271.
(4) ابن خالويه، إعراب القراءات السَّبع، ص: 72.

ومِمَّا يُؤكِّد ذلك أنَّهم يقولون: دَرَسْتُ الكتابَ، ودرست العِلم، أي: تناولتُ أثرَه بالحفظ، ولمَّا كان ذلك لا يتأتَّى إلَّا بمداومة القراءة؛ عُبِّر عن إدامة القراءة بالدَّرس، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ﴾ [سبأ: 44]، وقال تعالى: ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾ [الأعراف: 169].

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ التَّعْلِيمِ عَلَى الدِّرَاسَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾:

وُجُوبُ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَتَدَبُّرِهِ

جيءَ بالتَّعليم مُقدَّمًا على الدِّراسة في قول الله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾؛ لأنَّ التَّعليمَ مُوصِّلٌ إليها، فهو الباب الّذي يلج منه العالم إلى المُدارسة، وعَطفُ التَّدارس على القراءة دليلٌ على أنَّ الدِّراسةَ أخصُّ مِنْ مطلقِ القراءة؛ إذِ الدِّراسة: قراءة بإعادة وتَكْرِيرٍ؛ فإنَّ مادة (درس) في لسانِ العرب تدور حول معنى التَّأثُّر من تكرُّرِ عملٍ يعمل في أمثاله، ومنه قولهم: دَرَسَتِ الرِّيحُ رَسْمَ الدَّار؛ إذا عَفَتْهُ وأَبْلَتْهُ، ويقال: مَنْزِلٌ دارِس، وطَرِيقٌ دارِسٌ؛ أي: الذي لا يَتَبَيَّنُ، ومن هذا الباب قولهم: دَرَسَ الكتابَ؛ إذَا قَرَأَهُ بِتَمَهُّلٍ لِحِفْظِهِ أو تَدَبُّرِه، ومادَّةُ (دَرَسَ) تَستلزمُ التَّمكُّنَ مِنَ المفعول؛ فلذلك صارَ دَرْسُ الكتاب مجازًا في فَهمه وإتقانه، ولذلك عَطَفَ في هذه الآية ﴿وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ على ﴿بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، وسَمُّوا بيتَ قراءة اليهود مِدرَاسًا، ويَجِيءُ على وَزنِ الفِعَالَةِ دِرَاسَةٌ، وهي زِنَةٌ تَدُلُّ على مُعالجة الفعل، مثل: الكتابة والقراءة، إلحاقًا لذلك بمصادر الصِّناعات كالتِّجارة والخياطة[1].

وفي كُلِّ هذا إيماءٌ إلى أنَّ الواجبَ في الكُتُبِ التي يُنْزِلُهَا اللهُ تعالى على الأنبياءِ أن تُقرأَ وتُتَدَبَّرَ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/295 - 296.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البشر والنَّاس:

"إنّ قولَنا (البَشَر) يَقتضي حُسْنَ الهيئَة، وذلك أنَّه مُشتقٌّ مِنَ البشارَة، وهي حُسْنُ الهيئة، يُقالُ: رَجُلٌ بَشيرٌ وامرأةٌ بَشيرةٌ، إذا كان حسَنَ الهيئة، فسُمِّي النَّاس بشرًا؛ لأنَّهم أحسَن الحيوان هيئةً، ويَجوزُ أن يُقال: إنَّ قولَنا بَشَر، يقتَضي الظُّهور، وسُمُّوا بشرًا؛ لظُهور شأنِهم، ومنه قِيلَ لظاهر الجلد: بَشَرَة"[1]، وَمِنْهُ بَاشَرَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ، وَذَلِكَ إِفْضَاؤُهُ بِبَشَرَتِهِ إِلَى بَشَرَتِهَا. وَسُمِّيَ الْبَشَرُ بَشَرًا لِظُهُورِهِمْ. وَالْبَشِيرُ الْحَسَنُ الْوَجْهِ. وَالْبَشَارَةُ، الْجَمَالُ. قَالَ الْأَعْشَى:

وَرَأَتْ بِأَنَّ الشَّيْبَ جَا *** نَبَهُ الْبَشَاشَةُ وَالْبَشَارَهْ[2]

وقولنا: النَّاس، يَقتضي النّوس وهو الحَرَكة[3]، "وأصل النّاس: أناس، إلّا أنّ الألف حذفت من الأناس، فصارت: ناسًا، وسُمّي ذو نواس، لذؤابتين كانتا عليه تتحرّكان[4]، والنَّاس جمعٌ، والبَشَر واحدٌ[5].

الإيتاء والإعطاء:

الإيتاءُ أقوى مِنَ الإعطاءِ في إثبات مفعوله؛ لأنَّ الإعطاءَ له مُطاوِعٌ بخلاف الإيتاء، تقولُ: أعطاني فعطوت، ولا يُقالُ: آتَاني فَأتيت، وإنَّما يقالُ: آتَاني فأَخَذتُ. والفعلُ الَّذي له مُطاوِعٌ أضعَفُ في إثبات مفعوله، ممَّا لا مُطاوِعَ له؛ لأنَّك تقولُ: قَطَعتُه فانقطعَ، فيدُلُّ على أنَّ فعلَ الفاعلِ كان مَوقوفًا على قبول المَحلِّ، لولاه ما ثَبَتَ المفعول، ولهذا لا يصحُّ قَطَعتُه فما انقَطَعَ، ولا يصحُّ فيما لا مُطاوعَ له ذلك؛ ودليل ذلك في مَواضِعَ مِنَ القرآن، قال تعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]؛ لأنَّ المُلكَ شيءٌ عظيمٌ، لا يُعطاهُ إلَّا مَن له قُوَّةٌ؛ وقال: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: 1]؛ لأنَّه موردٌ في المَوقفِ مُرتَحَلٌ عنه إلى الجنَّة. وذهب الزَّبيديّ إلى أنَّ الإعطاءَ أقوى مِنَ الإيتاءِ؛ ولذا خصَّ في دفع الصَّدَقات الإيتاءَ،

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 276، والرّاغب، المفردات: (بشر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 1/251.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 176، والرّاغب، المفردات: (بشر).
(4) الخليل: كتاب العين: 7/303.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 176، والرّاغب، المفردات: (بشر).

ليكونَ ذلك بسهولة من غير تَطَلُّع إلى ما يَدفَعه، وتأمَّل سائِرَ ما ورد في القرآنِ، تَجِد معنى ذلك فيه، والكوثر لمَّا كان عظيمًا شأنُه غير داخلٍ في حِيطَةِ قُدرَةٍ بشريَّةٍ، استُعمِل الإعطاءُ فيه، وكلامُ الأئمَّة وسياقُهم في الإيتاء لا يُخالِفُ ما ذكرنا[1].

الحِكمَة والحُكم:

الحِكمَة: هِيَ العدل والعلم، والحكم والنّبوّة، والقُرآن والإنجيل: وَوضع الشَّيء في مَوضِعه، وصواب الأمر وسداده، وأفعال الله كذلك؛ لأنَّهُ يتَصَرَّف بمُقتضى الملك فيفعل ما يشاء، وَافق غَرَض العباد أم لا[2].

والحُكمُ أعمُّ مِنَ الحكمة، فكلُّ حكمةٍ حُكمٌ، وليس كلُّ حُكمٍ حكمةً، فإنَّ الحُكمَ أن يُقضى بشيءٍ على شيءٍ، فيقول: هو كذا أو ليس بكذا. ومعنى الحُكم في الآية القضاءُ والفصلُ بين النَّاس[3].

الرّسول والنّبيّ:

في الفرق بين الرّسول والنّبيّ أمورٌ: أحدُها: أنَّ الرَّسولَ مِنَ الأنبياءِ مَن جَمَعَ إلى المُعجزةِ الكتابَ المُنزَّلَ عليه، والنّبيُّ غيرُ الرَّسولِ؛ مَن لم يَنزِلْ عليه كتابٌ، وإنَّما أُمِرَ أن يَدعُوَ إلى كتابِ مَن قَبلَهُ. والآخر: أنَّ مَن كان صاحبَ المُعجزةِ وصاحبَ الكتابِ ونَسَخَ شَرعَ مَن قَبلَهُ فهو الرَّسولُ، ومَن لم يَكن مُستجمعًا لهذه الخصالِ فهو النَّبيُّ غيرُ الرَّسول[4].

العباد والعَبيد:

العبادُ جمعُ عَبدٍ كالعَبيدِ، وجَمعُ عَبدٍ لا يُقصَدُ معه التَّحقيرُ، والعَبيدُ يُقصَدُ منه، ولذلك قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ [العنكبوت: 56] بخلاف جَمعه على عبيدٍ، كقولهم: هُم عَبيدُ العصا، وقال حمزةُ بنُ المُطلِّب: هل أنتُم إلَّا عَبيدٌ لأبي. ومنه قول الله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فُصِّلت: 46]؛ لأنَّه مكانُ تشفيقٍ وإعلام بقلّة مقدرتهم، وأنَّه تعالى ليس بظلَّامٍ لهم مع ذلك، ولمَّا كانت لفظةُ العباد تقتضي الطَّاعةَ لم تقع هنا[5].

(1) الزَّبيديّ، تاج العروس، مادّة: (أتى).
(2) الكفويّ، الكليّات، ص: 382.
(3) الرّاغب، المفردات: (حكم).
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1310، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 23/236.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/461، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/231، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/294.

وممَّا يقتضي ذكره في هذا المقام بيان الفَرق بين عباد وعَبِيد، وذلك من خلال استعمال القرآن الكريم لهاتين اللَّفظتين، حيث يُعبّر بالعباد عمَّن هم عباد لله تعالى، ومن اختاروا أن يدخلوا تحت مظلَّة العُبوديّة طوعًا من غير إكراه، فهم راضون بكلّ ما يجرى عليهم من ربّهم، لا يخالفونه في أيّ أمر يجريه عليهم، أمَّا العَبيد فقد وَرَدَ ذِكرهم فيمن شَردوا عن طريق الهداية، واختاروا طريقًا غير طريق الله ربّ العالمين.

إذًا بين العباد والعَبيد عُمومٌ وخُصوص مِن وجه، إذ إنّ العَبيد قد تُطلق على عبيد الله وعبيد النَّاس، بينما يختصُّ إطلاق لفظ العباد بمن كانوا عبيدًا لله تعالى فحسب.

ولذلك كلُّ الخَلْق عبيدٌ لله، المؤمن والكافر؛ فالكافر مثلًا لا يستطيع أن يتمرَّد على الموت، فهو مَقهورٌ تحت المظلَّة الإلهيَّة، أمَّا المؤمن فهو مؤمنٌ بتقدير الله له فيرضى بقدر الله فيه، فهو بذلك انتقل من مرحلة العبيد إلى مرحلة العباد.

وممَّا يُؤكد الفَرق بينهما ما ذَكَره محمّد أمين الخضريّ في هذا المقام: أنَّ الانتقال في (عِباد) من الكسرة إلى الفتحة، ثمَّ إلى الاستطالة بالألف الرَّامزة إلى الرِّفعة وانتصاب القامة يُشير إلى أنَّ الانتساب إلى الله تعالى بعبادته ينقل الإنسان من وهدة الرَّذيلة، والخنوع للنِّد من البشر إلى سُمُوِّ النَّفس، والوجه في حضرة المعبود.

والانتقال في (عَبيد) من الفتحة إلى الكسرة، والاستطالة بالياء، يُوحي بانكسار النَّفس واستغراقها في الذّلّ ومهانتها باستعباد النَّاس[1].

الرّبّانيّون والأحبار:

ذكرَ ابنُ الجوزيِّ الفرقَ بينهما، وقال: فيه قولان: أحدُهما: لا فَرق، والكُلُّ عُلماء. وقد رُوي عن مُجاهد أنَّه قال: الرَّبّانيُّون: الفُقهاءُ العُلماءُ، وهم فوق الأحبار. وقال السُّدِّي: الرَّبّانيُّون: العُلماءُ، والأحبارُ: القُرَّاءُ. وقال ابنُ زَيد: الرَّبّانيُّون: الولاةُ، والأحبار: العُلماء، وقِيلَ: الرَّبّانيُّون: عُلماءُ النَّصارى، والأحبارُ: عُلماءُ اليهود[2].

(1) الخضري، الإعجاز البيانّي في صيغ الألفاظ، ص: 173.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/552.

التّلقين والتّعليم:

إنّ التَّلقين يكونُ في الكلام فقط، والتَّعليم يكونُ في الكلام وغيره، تقولُ: لقَّنَهُ الشِّعرَ وغيرَهُ، ولا يُقالُ: لقَّنَهُ التِّجارةَ والنِّجارةَ والخياطةَ، كما يُقالُ: علَّمَهُ في جميع ذلكَ، ومن جهة أخرى؛ فإنَّ التَّعليم يكونُ في المرَّة الواحدة، والتَّلقين لا يكون إلَّا في المرَّات. كما أنَّ التَّلقين هو مُشافهتك غيرك بالتَّعليم، وإلقاء القَول إليه ليأخُذَه عنكَ، ووضع الحروف مَواضِعها، والتَّعليم لا يقتضي ذلك؛ ولهذا لا يُقال: إنَّ اللّه يُلقِّنُ العَبدَ، كما يُقالُ: إنَّ اللّه يُعلّمه[1]، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ [الرّحمن: 3 - 4]، ولم يقل لقّنه البيان.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 82.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس، سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 5 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-57-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 5 : سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-57-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1170694 بتاريخ 2023/03/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»